استـــــذكـــــارات وقـــــــراءة

مـــوفق محمـــد .. حكـــايـــة شـــاعـــر وأب

سمـيـر طـاهـر

الشاعر موفق محمد

الإنتحاريون الذين يفجرون أنفسهم وسط العراقيين "الكفار"، والمفخخون الذين يفجرون سياراتهم في الأسواق والمستشفيات وأماكن العبادة، ربما لا يخشون مخلوقاً ولا خالقاً، ولكن عليهم أن يخشوا إنتحاريا يفوقهم تأثيرا، ويفوقهم إنتحارية، سوى إنه في الوقت الذي يفتون فيه باليأس من الأمل يُولد هو الأملَ من اليأس، وفي الوقت الذي يموتون فيه كرها بالحياة الدنيا يستعد هو للموت حباً بها، وفداءً لها. سلاحهم بارود وسلاحه كلمة، ولنرَ من الذي يغلب!

من الذي يزوّد شعلة الشجاعة في قلب موفق بزيت لا ينضب أبدا؟ هل هي الخسارة المطلقة، أم المَقْتَل المسبق؟ هل هي المعاناة من إنحطاط قيمة الحياة الآن في عراق حالك ووحشي مما يساويها والموت، أم الإيمان بحتمية حياة آتية في عراق يسع الجميع؟ من لا يملك شيئا، لا يخسر شيئا. وموفق الذي فقد إبنه، وحرية التعبير وكرامة العيش لسنوات طويلة، ما عاد يشعر أنه يملك شيئا يخشى عليه. واليوم وهو يتوقع، مثل كل فرد في العراق، أن يخسر حياته في أية لحظة وفي أي مكان ودون أي ذنب، لا يزال يرى نفسه لا يملك شيئا يخشى أن يخسره ما دام لا يملك حتى حياته. لقد مرّ بنا الأمَرّ، فما الذي نخشاه؟!

هو من جيل الشعراء العراقيين الذين عرفوا بالستينيين. مجايلوه أصابوا من الشهرة درجات متفاوتة، وكثيرون منهم أصابوها خارج العراق. هو إختار البقاء. ودفع ثمن ذلك باهضاً، وهو فخور به.

المرة الوحيدة التي رأيته فيها كانت عندما كنت في الخامسة عشرة من العمر، حيث كنت أصغر الحضور سناً في جمهور إتحاد الأدباء. في تلك السن كنت أحرص على حضور أماسي الأربعاء التي يقيمها الإتحاد في مقره بساحة الأندلس ببغداد. وفي إحدى تلك الأماسي إستمعت الى موفق. كان شابا قوي الصوت، ميالا الى الحركة أثناء الإلقاء. قرأ بضعاً من قصائده، ولا أزال أذكر أنه في إحداها يصف نفسه ينظر في المرآة الى رأسه ويتعجب من هذا الرأس كيف يدير شؤون العالم! كان يقرأ بإنفعال ويشع حيوية، أما قصائده فكانت تلتقط من الحياة اليومية صورا لتكشف ما فيها من فرادة لم ننتبه إليها. كان صيادا لجمال موجود حولنا ولا ننتبه إليه. ذلك كان أسلوبه. في متابعتي الأخيرة له لاحظت أنه لايزال عبر هذه السنين مواظباً على أسلوبه الخاص هذا، سوى إنه بلغ فيه غاية أشد صعوبة وتحديا حيث إنه بدلا من اصطياد الجمال في حدائق السعادة صار ينقب عنه بين أحزان الناس ونكبات البلاد ونكباته الشخصية.

لم ألتق به يوما، لكني كنت دائما أتتبع أخباره. كان لي ابن عم عزيز (مات في الحرب العراقية الإيرانية) من أبناء مدينة الحلة، مدينة موفق محمد. كان ابن عمي طالبا في إعدادية الحلة المركزية التي كان موفق مدرسا فيها، فكان يسرد علي كلما زارنا في بغداد أطرافا من أحاديث وطرائف أستاذه الشاعر، وكنت أستزيده.

عندما إقتحم الحرس الجمهوري مدينة الحلة لقمع إنتفاضتها سنة ١٩٩١ أقتيد إبن الشاعر بعيداً مع من أقتيدوا من أبناء المدينة، ومنذ ذاك لم يعرف عنه شيئا الى أن عثر على رفاته في مقبرة جماعية أصر صدام حسين حتى اللحظة الأخيرة على أنها كذبة. إختفاء إبن الشاعر في تلك الظروف المرعبة كان أقسى الضربات التي تعرض لها في حياته. في تلك الأثناء بدا وكأن الشعر الفصيح ما عاد يكفي لوصف فجيعته، فأرفقه بباقات حزينة من شعر العامية. وما كان ذاك رثاء، إنما أناشيد روح الى روح...

في سنوات الحصار الدولي على العراق نشرت لموفق قصيدة "عبديئيل" عن واقع الحصار يواصل فيها أسلوبه الخاص: إلتقاط صور من واقع الحصار وإعطائها لمسة من فنه. هذه اللمسة صارت تتكرس كأسلوب خاص به وحده، صعب الشروط حتى ينطبق عليه وصف السهل الممتنع، فيأتي النص حافلا بالتورية والكنايات والإحالات التي تعود جميعها الى قاموس الحياة العراقية في هذه اللحظة. لا شيء في النص غير مفهوم ما دمت تعيش في هذا الزمن، ولا شيء فيه لا يهيج مشاعرك ما دمت عراقيا. وفي تلك السنوات كان قد إنتهى به المطاف واحدا من عامة الشعب يرتزق بعمل يده، تاركا لـ "شعراء أم المعارك" الإرتزاق ببيع أنفسهم.

بعد إحتلال العراق وسقوط نظام صدام تحول العراق الى ساحة لحروب عديدة في وقت واحد. غير أن كل المتحاربين بدا وكأنهم متفقون على وسيلة واحدة لإرهاب بعضهم بعضا: دماء العراقيين. ولم تكن مدينة الحلة إستثناء، لا في جرائم الإحتلال وجرائم المنتفعين منه ولا في جرائم التكفيريين وجلادي النظام السابق. فكانت السيارات المفخخة تنفجر عند طوابير الناس في أي مكان، فيما الإنتحاريون يختارون أكثر الأماكن والأسواق إزدحاما بـ "الكفار" ليفجروا أنفسهم بينهم. وضع غرائبي كله: فلا الحجج التي يؤتيها هؤلاء الإنتحاريون يمكن عقلها ولا وسائلهم العديمة الضمير. وكعادته إنطلق صوت موفق محمد في المعركة. وكانت ولا تزال معركة شرسة. هم يضربون بالسيارات والأحزمة الناسفة وموفق ينسفهم بالكلمة. يفككهم، يفضح أعماقهم، يواجههم بحقيقتهم. لا يرفع في قصائده شعارات جاهزة، إنما يعيد الشعارات المتداولة اليوم الى عناصرها الأولية، لا بالفكر التحليلي وإنما بالفن والمعاناة. أنى لقارئ أو ناقد أن يفي قصيدة موفق "فتاوى للإيجار". على سبيل المثال. حقها ما لم يكن عراقيا ويعيش في العراق اليوم؟ حين يقرأها القارئ غير المكتوي بالنار العراقية قد يتصور الصور الصادمة التي تحفل بها والعبارات الراجّة، والتعابير الدموية، ضربا من التغريب، وقد لا يصدق أن كل هذه الأشياء حقيقية وتحدث اليوم في العراق. على قارئ قصيدة موفق محمد أن يصم أذنيه وهو يقرأ عويل الثكالى والصرخات الأخيرة للضحايا تطير خارج الورقة وتصك الآذان. وفي هذه القصيدة بالذات يشن موفق هجوما إنتحاريا على الإنتحاريين، هو الذي لا حراس لديه ولا نفوذ يحميه. إن قصيدته خطر حقيقي عليهم لأنها ليست عادية، ولا تحريضية، إنما هي فن بديع يمزج الحقيقة بالمجاز، والمعنى المباشر بنفيه، والمعلومة بالسخرية منها، مثلما يدخل التعابير العامية والكنايات المحلية في النص الفصيح، ويجاور الإحالات الفلسفية والميثولوجيا الرافدينية جنبا الى جنب مع الأقوال السائرة والحكمة الشعبية. ذروة فنية نادرة لأنها نتاج مزج لعدة ذرى معاً: ذروة القتال في معركة الحياة؛ والذروة في شفافية الروح؛ والذروة في المجاهدة الجمالية.

موفق محمد لا يرى حوله ما يدفعه الى الإعتقاد بأن معاركه إنتهت. ليس لأنه مشاغب أو ميال للعراك وإنما لأن هذه المعارك. أصلاً. ليست إختياره؛ لقد فرضت بالقوة عليه وعلى العراقيين، وكل مجدهم هو في إصرارهم على الدفاع عن كينونتهم الإنسانية. سابقا لم يفهم الشاعر لماذا سيق الأبرياء، ومن ضمنهم ولده، الى الموت بحجة التفتيش عن الأعداء. وحاليا لا يفهم لماذا يقتل المدنيون في الأسواق بحجة الإحتلال الأميركي. أما القتل الجماعي العشوائي للمواطنين بدافع الكره الطائفي والتعصب المذهبي فحرب إجبارية أخرى. ثمة في العراق، ومنذ زمن بعيد، مزاج يستسهل قتل النفس فردا وجماعة، سواء تلبّس أعضاء فرق إعدام حكومية أو عناصر تنظيمات مسلحة. هذا المزاج بلاء دفعت ثمنه الأسر العراقية من أبنائها وبناتها جيلا بعد جيل. نحن العراقيين ممتنون للفدائي موفق محمد الذي يصد عنا بالكلمة ويلات هذا المزاج الجنوني. إنه يقدم كلمته، ومصيره الشخصي، فداء لأبناء وطنه، تاركا الشهرة والجوائز لغيره من نجوم الظهور الأدبي مثلما تركها سابقا للمداحين.

في النقـــد التـطـبـيـقـي:

عـمـارة " دار الاوبـــــرا " في كـــوبـنـهـــاغـن

د. خـالـد الـسـلـطـانـي
معـمـــار واكـــاديمـي

في الفترة الاخيرة اكتمل المشهد المعماري في العاصمة الدانمركية باضافات تصميمية مميزة لمبانٍ مختلفة الوظائف، وذات لغة معماريةٍ ما بعد حداثية تساوقاً مع خصوصية المرحلة التي انشئت فيها تلك المباني. ومن ضمن تلك المباني المهمة التي اضافت بحضورها المعماري شيئا مميزا الى " سلويت " Silhouetteخط سماء كوبنهاغن وفي وسط منطقتها القديمة، مبنى " الاوبرا " للمعمار " هينينغ لارسن " (١٩٢٥) Henning Larsen، المشيد بمنطقة الميناء .

يعود تاريخ تنفيذ مبنى الاوبرا الى اعوام ٢٠٠١- ٢٠٠٤، وافتتحت رسميا في كانون الثاني ،٢٠٠٥ وقد انشئت في المنطقة القديمة من المرفأ الذي اعيد تأهيله وتخطيطه ليكون مكانا حاضنا لمختلف الابنية الثقافية والإدارية والتعليمية والسكنية. ففي سنة ١٩٩٥ تم استدعاء اربعة مكاتب استشارية دانمركية لتقديم مقترحاتها للمنطقة الى كانت بالسابق منطقة عسكرية. وكان مكتب هينينغ لارسن احد المكاتب المدعوة، وتم الاخذ بمقترحه فيما يخص تأهيل وتخطيط جزيرة " دوكين " التي سيشيد لاحقا عليها مبنى الاوبرا ؛ المبنى الذي سينهي المحور البصري المبتدأ عند "كنيسة فريدريك " (الكنيسة الرخامية) ومرورا بمجمع القصور الملكية في " آمالينبورغ " Amalien-borg، عابرا المضيق البحري وليتوقف عند مقترح مبنى الاوبرا في جزيرة دوكين ؛ التي اريد لها ان تكون " جزيرة حجرية " بحي المدينة الجديد المطل نحو البحر من جهة، والمتوجه نحو حديقة مزروعة صممت لتنشأ في الطرف الاخر من المضيق. لكن تخطيط الجزيرة سرعان ما اتخذ طابعا اخر عندما رغب " اي. بي. مولير " احد الشخصيات المالية، ورجل الاعمال المعروف في الدانمرك ان " يهب " الى مدينة كوبنهاغن " مبنى الاوبرا " الجديد في نفس الموقع المحدد من قبل الاستشاري، ولكن بشرطين اشترطهما لاجل الموافقة على تحقيق منحته الكبيرة التي قدر لها ان تكون بحوالي ٢,٥ بليون كرونة دانمركية (ما يعادل ٥٠٠ مليون دولار امريكي تقريبا)، اولهما ان لايكون مبنى الاوبرا الجديد موضوعا لمسابقة معمارية دولية، والشرط الثاني ان يقرر هو، الشخصية المانحة، اسم المعمار الدانمركي والذي حدده بمكتب " هينينغ لارسن "، الذي سبق وان تعامل معه في تصميم كثير من مشاريعه البنائية. وبعد نقاش سريع وافقت الجهات المسؤولة على مقترح رجل الاعمال الغني المشرف وقتذاك على اعتاب التسعين !.

يتعامل هينينغ لارسن مع المكونات التقليدية لمبنى اوبرا وهي : المدخل، البهو، قاعة النظارة الرئيسية، خشبة المسرح، فضاءات ما بعد الخشبة، المسرح التدريبي والتسهيلات الادارية والخدمية والنفعية، يتعامل معها معماريا بصورة تقليدية.. ايضاً. وهذا واضح من طريقة اختيار الصفة التماثلية لمخطط مكونات المبنى، وكتلته الثابتة ذات الحجوم الهندسية الاولية والمنتظمة، فضلا عن هيئة القاعة الرئيسية التي جاء شكلها على شكل (حدوة الفرس): الشكل التقليدي والمألوف جدا في تصاميم تلك القاعات. بعبارة اخرى يتغافل هينينغ لارسن عن سياق الخطاب المعماري العالمي الموار بمقارباته المعمارية مابعد الحداثية ويلجأ الى الاسلوب الكلاسيكي الفاضح لحل اشكاليته التصميمية. لكن هينينغ لارسن لا يرغب في ان يكون كلاسيكيا بالمعنى المباشر للكلمة ، كما انه لا يتوق ان يكون تقليديا، رغم مايراه الناقد الانكليزي " وليم كيرتس ". في تعليقة على عمارة مبنى الاوبرا، حيث يشير في مقال منشور له في المجلة المعمارية الدانمركية الى ان " من الواضح جدا ان مبنى الاوبرا يرسي بمرساته في خضم التقاليد بمفهومها " التحتاري ". فهو ينزع لكسر وازالة الانطباع الكلاسيكي عن مخططه باللجوء الى ناحيتين اثنتين، اولاهما : استخدام السقف الكابولي الممتد طويلا حرا وطليقا، والمغطي للميدان الواقع امام المدخل، والناحية الاخرى اسلوب المعالجات الخاصة و" غير التقليدية " لتصميم البهو الرئيسي واختيارعناصره التكوينية. وقد افضى الاشتغال على تينك الناحيتين الى " انتشال " التصميم من الوقوع في " احابيل " التأثيرات الكلاسيكية وقربه من تطبيقات اجواء الخطاب المعماري المعاصر وسياق مقارباته المهنية .

ولئن كان امرا تقليديا ان يتطلع مصممو الابنية الثقافية الكبرى كالمسارح الى ناحية المدخل الرئيس للمبنى كونه يمثل عنصرا دالاً عن مداليل كثيرة، وتسخيره ليكون احد المراحل الاساسية في مجمل الحل التصميمي ؛ فان هينينغ لارسن لا يشذ عن هذا التقليد. بيد ان مقترحه سيكون مقترحا مختلفا وغير عادي في آن. اذ انه سيتجاهل المدخل ذاته ليجعل من دلالاته موضوعا لاشتغالاته التصميمية. فنحن هنا " تحت " سقف واسع وفسيح ممتد بشكل كابولي الى نحو من ٣٢ مترا، يغطي كل ارضية " الميدان " الموصل الى المدخل. وتنوب هذه المعالجة الفريدة عن اساليب التعاطي التي ارتبطت في ذهنية الزائر او المشاهد للسلالم العريضة والمرتفعة التي تقود عادة الى مداخل المسارح والحافلة بالعناصر التزينية التي تشي بثراء الاحداث المعمارية القادمة داخل فضاءاتها.

لم يكن " لارسن " اول من لجأ الى مثل هذه المعالجة سعياً لتأكيد رمزي لاهمية اشكالية تخوم الخارج والداخل، والذي تمثله ابواب المداخل في الابنية العمومية. لنتذكر " سقيفة " محطة " ترمينى " بروما / ايطاليا في بداية الخمسينيات والتي كانت ابعادها الكابولية الطليقة (١٩ مترا) باعثا لعمارتها المؤثرة وحدثا تصميما لتلك المرحلة الزمنية من عمارة الحداثة. وهل بالامكان هنا تفادي ذكر " سقيفة " مجمع " مجلس الامة الكويتي " (١٩٧٢-١٩٨٢) لمصممه " يورن اوتزن " –مواطن " لارسن " الدانمركي ذي الشهرة العالمية المعروفة ؟ فمفردة السقيفة بشكلها المميز المغطي كل المساحة الواقعة امام المدخل الرئيس لذلك المبنى الجليل، عدت بمثابة " ضربة " التكوين والعنصر الاكثر حضورا وتذكرا في مخيلة مستخدمي المبنى ومتلقي عمارته رغم انها ليست كابولية بالمعنى الانشائي. كما ان ممارسة شبيه لتلك المعالجة الكابولية كانت حاضرة في تصميم مبنى " المؤتمرات والمركز الثقافي " في لوسيرن بسويسرا (١٩٩٧) للمعمار جان نوفيل. ويظهر ان معمار الاوبرا الكوبنهاغنية كان معجبا بها وباسلوب عملها جراء قوة تأثيراتها التكوينية والجمالية على قراره التصميمي. وهو امر اشار اليه ايضا الناقد الانكليزي " وليم كيرتس " في مقاله المنشور في المجلة اياها.

يرى المعمار ان البهو الرئيس مؤهل لان يؤدي دورا فاعلا في اكساب التصميم نزعة المعاصرة، النزعة المتساوقة مع اجواء الممارسة المعمارية مابعد الحداثية، من خلال التأكيد على اهمية انسيابية الفضاء الفسيح، وتغلغله في جميع طوابق البهو الاربعة، فضلا عن توظيف قناطر الاتصال بين مناسيبه المختلفة وطوابق القاعة الرئيسية. وكل ذلك عمل على " تشويش " الفراغ المصمم مكسبا اياه حيوية بصرية يزيدها تأثيرا على جموع النظارة المنتشرين في المناسيب المختلفة اوقات الانتظار وبين الفواصل. لقد تطلع المعمار لان يكون المنظر البانورامي المرئي من بهو الاوبرا متاحا لزوار المبنى بزاوية كبيرة تصل الى ١٨٠ درجة. ولهذا فانه حرص على ان تكون واجهته الامامية مزججة بالكامل، وان تكون مساحات مناسيب البهو ملاصقة للواجهة الامامية، ومتصلة بواسطة جسور / قناطر، لكن مواقع تلك القناطر متناوبة باختلاف من طابق لاخر، ما يتيح لزوار المسرح ان يشاهدوا الاخرين بسهولة وان يكونوا انفسهم موضوعا للمشاهدة، تماما كما هو الحال في نوعية تصاميم مقاعد القاعة الرئيسية، بحيث لا تقتصر المتعة البصرية على تتبع مايدور على الخشبة لوحدها فقط، وانما يتيح اسلوب تصميم القاعة وطريقة انتشار مقاعدها امكانية ان يكون المشاهدون انفسهم مجالا " لتتبع " الاخرين. بتعبير آخر يتوق المعمار الى ان تكون اجواء المسرح الخاصة الحافلة بالاداء التمثيلي، وفرضية (ان تشاهد وان تكون مدارا للمشاهدة)، احد المقومات التي اعتمدها في حله التصميمي لمفردتي القاعة والبهو الرئيسيين. من هنا يمكن تفسير النزعة " الاخراجية " التي غلفت قرار شكل القاعة وتأثيراتها على الجهد المبذول في تنظيم عناصر البهو المتعددة وتوظيف مفردات التأثيث المشغولة بتصمم استثنائي بالاضافة الى تنظيم حركة النظارة ؛ ليكون كل ذلك بمثابة اداء مسرحي حر " يعمل " بتلقائية في فضاءات اروقة الاوبرا وبهوها الفسيح.

الكتلة المعمارية.. تفصيلات

ثمة احساس خاص يتبدى عن رؤية كتلة الاوبرا وينجم عن التمعن بتفاصيل معالجات واجهاتها الاخرى. واعترف بان ذلك قد يكون محض احساس شخصي، احساس متأت جراء مشاهدتي شبة اليومية لمبنى الاوبرا التي تقع بجوار مكان عملي بمدرسة العمارة ؛ فاطلالتها المميزة تظل مرافقة لي طيلة ساعات العمل اليومي. لكنه احساس ازعم بان كثراً من المشاهدين للاوبرا يشعرون به، وهو الفة ومقبولية الكتل المصممة وحتى انتمائيتها الى المكان، المكان المترع بالنكهة المعمارية الكلاسيكية المنتشرة في مجمل صياغة واجهات المباني المحيطة. هل هذا سبب كافٍ لتفسير تلك المألوفية ؟ ربما. لكني اشعر من جانب اخر بان ثمة تماثلاً بين اسلوب معالجات واجهات الاوبرا وبين مبنى " وزارة الخارجية " بالرياض (١٩٨٠- ١٩٨٤) لنفس المصمم. وربما كان هذا باعثا مضافا لاحساسي عن مألوفية المبنى. واتساءل هل ان مرد ذلك التماثل الطريقة ذاتها لكيفية رسم فتحات النوافذ ؟، ام في تشابه اسلوب اكساء الواجهات بالحجر الضارب الى الاصفر ؟ ؛ ام في نوعية اصطفاء الحجوم الهندسية المنتظمة ذات الاشكال الاساسية ؟.

وفي الاحوال كافة، فان تماثل الواجهات في كلا المبنيين وشى بمثل ذلك الاحساس الاليف (لدي على وجه الخصوص)، وهذا عمل الى جعل حدث تصميم وتنفيذ مبنى الخارجية بالنسبة الى المعمار بمنزلة مرحلة ابداعية غاية في الاهمية ، ان كان ذلك لجهة نوعية كشوفات الحلول التصميمية، ام لناحية قوة تأثيرات تلك التفاصيل على قرارات تكوينات مشاريع عديدة تلت حدث ظهور ذلك المبنى . ومعلوم ان عمارة مبنى وزارة الخارجية بالرياض، عدت من قبل كثر وانا منهم، كحدث مؤثر في منجز العمارة العالمية في العقود الاخيرة، وقد حازت على اهتمام واسع من قبل الاوساط المهنية ونالت عمارتها جوائز محلية وعالمية مرموقة، تلك العمارة التي تدين بتكوينها المميز وعناصرها التصميمية الى فعالية " التناص " Intertextualityالتي اجراها المعمار مع منجز العمارة الاسلامية وتأويلاته الشخصية المميزة لخصائص تلك العمارة واعادة قراءته الفريدة لمدالين مبادئها التصميمية.

وعودة الى مبنى الاوبرا، ولكن بتساؤل مشروع، هل ياترى سنتوقع ثمة نفوراً من مبنى الاوبرا عن مجاوراته فيما لو كانت المعالجات التصميمية معتمدة كلياً على طروحات لغة عمارة ما بعد الحداثة ، بكل ما يعني ذلك من " تشويش " كتلوي وبصري وما قد يرافق ذلك ايضا من انزياحات كبرى في استراتيجية آليات ادراك المنجز المعماري ؟ !

بالنسبة الى " هينينغ لارسن " الجواب جاهز، ومكتمل وحتى... مشيد !. وما علينا الا التمني بان قراراته المعمارية التي افضت لمثل ذلك الجواب كانت سليمة وايضا متساوقة مع مكانها ومع... زمانها. ؟

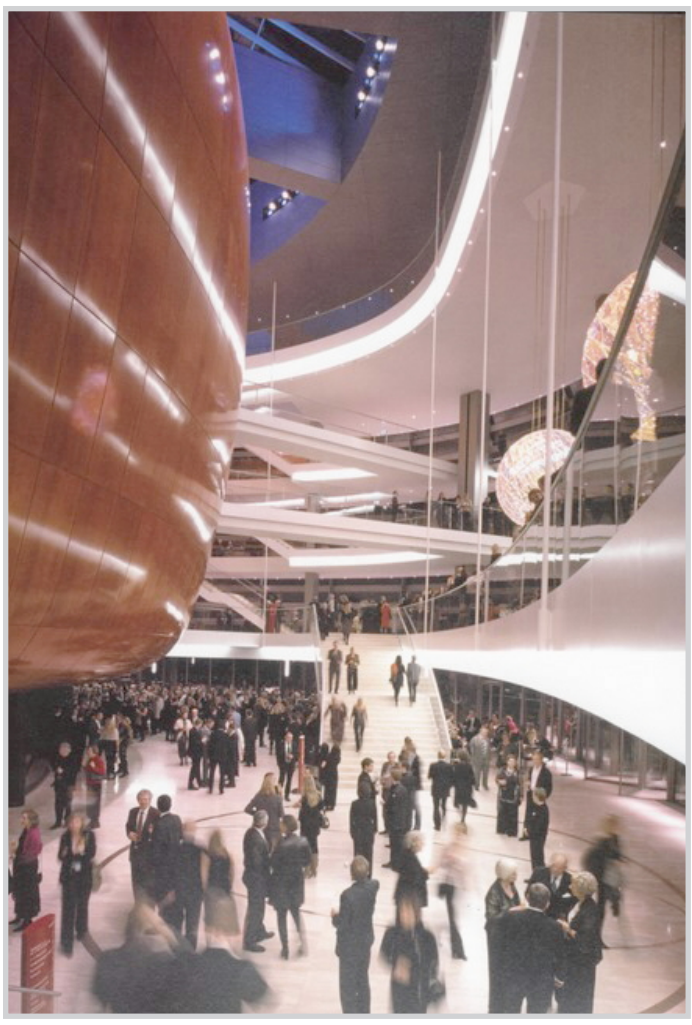

بغـــــداد الـــتـــي نـحـــب .. بغـــــداد الـــتـــي تـقـــتـرب

عـبـد الـخـالـق كـيـطـان

أشعر بالتعاسة كلما قرأت أو سمعت عن تفجير اجرامي انتحاري يطول تجمعات الأهل والأصدقاء في بغداد.. وأشعر بالتعاسة كلما قرأت أو سمعت عن عمليات التهجير البغيضة التي يتعرض لها البغداديون من قبل المجاميع الظلامية.. واشعر بالتعاسة كلما بالغت المحطات الفضائية ووكالات الأخبار في تقاريرها عن غياب الفنون والمسارح عن بغداد... اشعر بالتعاسة، ومثلي يشعر كثيرون، فهذه المدينة منذورة للجمال وليس للخراب.. للفنون وليس للعتمة... للشعر وليس لليباب.

❖❖❖❖

وبالرغم من كوني لم أولد في بغداد، فأنا واحد من الذن حلموا بالوصول إليها طمعاً في تحقيق الكثير من الأحلام الشخصية، ومع ذلك اشعر بأني أبن بغداد.. بغداد التي كانت تمثل لي حلماً صعباً استطعت أن أصله بسبب دراستي الأكاديمية أولاً، ثم عملي في عدد من المؤسسات الاعلامية التي تنتشر فيها دائماً.. حتى لحظة خروجي من العراق كنت ممتلئاً بالحسرة على بغداد أكثر من الحسرة على مدينة ميلادي الأول..

ومن منفى إلى منفى.... تظل هذه المدينة رفيقة أنيسة وحلماً مستمراً...

كانت الدموع تنهمر كلما عرضت الشاشات لقطات عن هذه المدينة العملاقة..

❖❖❖❖

ذات يوم، قبل سنوات، كلفتني جهة معارضة لنظام الحكم الديكتاتوري عندما كنت أقيم في العاصمة الأردنية عمان بانتاج فيلم قصير عن بغداد.. فيلم لا يمثل سوى وثيقة عن بغداد تحت جحيم الديكتاتورية.. ولقد عهدت بالمهمة في ذلك الوقت للفنان الكبير مقداد عبد الرضا، المقيم في بغداد، ليقوم بتصوير مشاهد هذا الفيلم.. وفعل الرجل على أكمل وجه حتى إذا ما وصلتني نسخة الفيلم وبدأت في مشاهدته لم أتمالك نفسي وأخذت دموعي تنهمر على أنغام الموسيقى الحزينة للفنان عازف الجوزة أنور أبو دراغ الذي أختار الفنان مقداد عبد الرضا موسيقاه كخلفية مرافقة لمشاهد الفيلم.. كانت مشاهد الفيلم تتحدث عن خراب العاصمة.. الجوع بشكل خاص والفقر.. العوائل المشردة بلا مأوى.. المدسات التي تملأ الشوارع بدلاً من الأزهار.. الشوارع المكتظة بالباعة المتجولين وليس سواهم.. قوافل الحمير التي عادت باعتبارها وسائل نقل في الألفية الجديدة.. المدارس الخاوية التي يتسرب طلابها وتلامذتها منها من اجل البحث عن لقمة خبز.. العصابات.. الجريمة.. الخراب...

اليوم لم أعد بحاجة لفيلم من هذا النوع... فبغداد التي كانت تمثل قلعة أسرار في عهد الديكتاتورية صارت اليوم مدينة لا مثيل لانفتاحها على وسائل الاعلام .. مدينة تنتشر صورها على صفحات الجرائد والمجلات الأولى.. مدينة تعتاش الفضائيات على صور مجازرها.. أما شاشات الانترنت فسرعان ما تقذف دماً بغدادياً على المتصفحين مع أول ضغطة زر... ياه... انها بغداد نفسها ولا شك!

❖❖❖❖

لم يكن من العصي فهم استهداف جماعات الظلام بغداد دون سواها في هذه الهجمة البربرية.. فهي الرمز.. وهي المبتدأ، واذا ما تحقق لهذه الجماعات حلمها السافل في تحطيم بغداد فإن تحطيم العراق سيكون بعد ذاك مجرد تحصيل حاصل.. خسئوا..

❖❖❖❖

بغداد التي نعرف لا يمكن أن يعيش ابناؤها بلا صالات عرض سينمائية، مسارح، متنزهات، دور نشر، مقاه، مطاعم شعبية وأخرى فارهة، حديقة حيوان ومدينة ألعاب، سمك مسقوف على شواطئ دجلة، تماثيل تحكي قصص المدينة هنا وهناك، قاعات للرسم والموسيقى والرقص، معابد للمسلمين والمسيحيين والصابئة واليهود، مقامات للأولياء والصالحين والمتعبدين والمتصوفين، أسواق للخردة، أسواق للسيارات، أسواق للسجاد والأثاث العتيق والمستعمل، محلات للحلاقة، محلات لتصليح الساعات، وأخرى لأدوات المطبخ والحمامات، شوارع مكتظة بالبشر على غرار الأعظمية وشارع الرشيد والكرادة والسعدون، شوارع مكتظة بالمراجعين والأطباء على غرار شارع المشجر، شوارع مليئة بالحسان على غرار المنصور، شاورما على الماشي، ومحلات حدادة، مطاعم باجة شهيرة، وعلاوي سمك وخضار ولحم، بغداد التي نعرف لا تعيش بلا سماء تلونها الطيور... ونهرين يزدانان بالمراكب والمواويل..

❖❖❖❖

وفي حاضر الزمان، تقرأ عن كتابات تريد تحقير هذه المدينة الحبيبة، مرة بدواعي المحبة!! كما يقولون!، ومرات بدواعي الجهل، وأكثر المرات بدواعي الكره.. ولكن هل تحقر مدينة مثل بغداد؟ وهل يمكن مجرد تخيل ذلك؟ يستكثرون عليها أن تقيم مهرجاناً للفرح، للشعر أو الموسيقى أو المسرح؟ حجتهم في ذلك الوضع الأمني، وهي حجة وجيهة في ظاهرها ولكنها خبيثة في باطنها.. أبداً لن يكون الوضع الأمني عائقاً أمام بغداد وابنائها إذا ما أرادوا أن يقيموا قداس احتفال، ولقد فعلوها.. مرات ومرات كان آخرها احتفال أقامه الحزب الشيوعي العراقي في ملعب الشعب الدولي.. غنى المطربون، ورقص الراقصون وأحتشد الشعب من أجل الفرح.. فهل جربنا أن نكرر ذلك؟! إن ما تريده مجاميع الظلام لبغداد هو أن تغرق في الظلام!!، وأن تبتعد عن كل ما يميزها.. ونحن في غالب الأحيان نمنح هذه المجاميع المجرمة الفرصة لتحقيق ذلك.. لقد عتمنا على ابناء هذه المدينة، وبدلاً من بناء احتمالات الفرح والعافية سورنا شوارعها بالكونكريت.. لا ليس الكونكريت ما تريده المدينة، أنها تريد المدنية.. هل مشهد فوز شذى حسون في مسابقة الغناء وردة فعل الجماهير الفرحة بذلك الفوز ببعيد ؟!

❖❖❖❖

وفي كل يوم يخرج علينا من يجعل بغداد عنوانه الحزين، فمرة يميتونها، ومرة يجعلونها مدينة أشباح، ومرة يقولون لنا أن ليس في شوارعها سوى المجانين والمجرمين، ومرة أخرى يطل علينا من يؤكد أن الجثث تملأ الشوارع فيها... صار العنوان هذا إذن بضاعة الطامحين ولا يهم بعد ذاك الجروح والندوب التي يتركها في وجدان عشاق بغداد.. ندرك جيداً أن البنايات المحترقة التي لم تعمر بعد في وسط بغداد مثال على الخراب، ولكنه خراب مؤقت، خراب بناية سرعان ما تعاد إليها الحياة، فكيف نعيد الحياة للنفوس إذا ما خربت؟ نرجوكم أيها الأصدقاء أن تحاولوا رسم صورة للجمال.. الجمال يولد من الخراب أيضاً، من أجل بغداد التي نعشق ارسموا صورة لجمالها الآخاذ.. دعوها تتنفس بالموسيقى.. لا تتركوا الفكرة الجاهلة تتحكم.. دعونا جميعاً نعاضد بعضنا البعض من أجل بغداد.. حرضوا أبناءها الرسامين والشعراء، المسرحيين والموسيقيين، حرضوا النحاتين، الراقصين، حرضوا الكتاب والصحفيين، حرضوا صانعي الجمال فيها ليبدعوا... لا قيمة لنا بلا بغداد.. لا تحرضوا الشر على الايغال، والفساد على الانتشار والموت على الحياة.

❖❖❖❖❖

نحب بغداد ونعشق...
بأهلها
بتنوعهم العجيب
بالشوارع
بالمعالم
بكل شيء حي فيها
والمقابر
نحب بغداد التي تقترب
كلما أوغلوا في كرهها نوغل في عشقها
نحب بغداد
مدينة الأحلام... الأساطير... الجنون
والحقيقة.